الفصل الأول

مقدمة مع منظور تاريخي

يتبين من دراسة تاريخ الفكر الديني والعلماني أنه خلال الأزمان المختلفة كانت لدى الفلاسفة العظام، ورجال الحكمة، والزعماء الدينين، مفاهيم متباينة عن قيمة العقل والمنطق والوحي، حيث يمكن تقسيمهم إلى مجموعات عدة.

فهناك من يؤكدون على أهمية دور العقلانية، إلى حد أنهم يعتبرون أن العقل هو الأداة الوحيدة للمعرفة واكتشاف الحقيقة. وبالنسبة لهم، يُعتبر الأمر الوحيد المعقول الذي يمكن أن يرتضيه العقل هو التفكير الجدلي المبني على الحقائق الحسية المنظورة. وعلى ذلك، فإنهم يعتقدون أن الحق (أيا كان الشكل الذي يُعَرِّفونه به) يمكن الوصول إليه فقط من خلال الملكة العقلية.

وهناك بعض المفكرين الذين يؤمنون بظاهرة الهدي الإلهي، التي - حسب ما يظن هؤلاء - تلعب دورا معيّنا في تنوير العقل البشري، وتمده بالإجابة على الكثير من المعضلات التي لم تُحل.

وأيضا هناك أولئك الذين يعتقدون أنه لا يمكن التوصل إلى الحقيقة إلا من خلال تجارب ذاتية تسمى "إلهامات". ويعتبرون أن هذا الإلهام يمكن الوصول إليه من خلال التأمل العميق في أغوار النفس، كما لو كانت صورة من تلك الإلهامات قد انطبعت على كل روح إنسانية. فَهُم يسبرون أعماق أنفسهم، ومن خلال الدراسة الذاتية للنفس الإنسانية يتأتى لهم الفهم الأساسي للطبيعة وكيفية عملها.

وهناك نوع آخر من طرق الوصول إلى الحقيقة، تشترك فيه كل من المدرسة الفكرية الدينية والعلمانية، وهو التصوف. فالنّزوع إلى اعتبار

الحياة لغزا كبيرا.. يبدو وكأنه القاسم المشترك بين المؤمنين وغير المؤمنين على السواء. وقد ينتمي المتصوفون إلى كل الفئات المذكورة أعلاه، ومن الممكن أن يكون منهجهم فلسفيا أو دينيا، ولكن السمة المميزة لهم هي أنهم يتصفون بالغموض.

ثم هناك أشباه الفلاسفة الذين يستعملون كلمات وجُملا يصعب على الإنسان العادي أن يفهمها. وعلى ذلك فإنهم يحجبون أفكارهم وآراءهم وراء ستار غامض من منطوقاتهم وأقوالهم التي يسهبون فيها. بينما هناك آخرون لهم عقول علمية، ولكنهم في حقيقة الأمر متصوفون بنفس القدر، مثل فيثاغورث وابن رشد (المعروف في الغرب باسم Averroes). إنهم يغوصون في الأعماق بحثا عن جوهر الحقيقة، ولا يكتفون بالتحليق حول مظاهر الأشياء. وإنه لمن المفيد دائما أن نقتفي آثار هؤلاء بالأسلوب العقلاني.

وفي عالم الأديان نجد متصوّفين من عدة أشكال وألوان. فهناك أولئك الذين يتبعون الدين ويؤدون العبادات الظاهرية التي يتطلبها الدين، ولكنهم يسعون جاهدين ليجدوا معنًى أعمق لهذه المتطلبات. وهناك من يتشدد في تأكيد أهمية المعاني العميقة على حساب ظواهر العبادات، مما يؤدي أحيانا إلى إهمال القيام بالعبادات الظاهرية وإلغائها كلية.

ولكن أتباع الديانات التي تقوم على الوحي الإلهي.. لا يبقون دائما محصورين بجدل في نطاق حدود الحقائق الموحى بها. ففي المراحل المتأخرة من كل دين نجد أيضا مثل هذه الجدليات التي لا يمكن اعتبارها كلها بأنها ذات طابع ديني. إذ نجد نفس الأسئلة القديمة التي طال عليها الأمد، قد عادت مرة أخرى إلى الحياة، ولكن في إطار جديد.. ما هو العقل؟ وأي دور يلعب في الأمور التي تخص الإنسان؟ وما هو موقف الوحي بالنسبة للمنطق والعقل؟

ومن الملاحظ بوجه عام وفي جميع الأحوال، أن التداخل والتباين بين

الأفكار المختلفة في المراحل المتأخرة من تاريخ أي دين من الأديان، يميل إلى العودة إلى الاضطراب الفكري الذي كان سائدا قبل مَقْدم ذلك الدين. ويحدث هذا لأن تأثير البشر على الدين يؤدي دائما إلى انقسامه إلى فرق كثيرة ومذاهب متعددة، وينتكس به جزئيا إلى الفلسفات والأفكار الأسطورية القديمة. ومن النادر أن يؤدي ذلك التأثير البشري إلى التوحيد والتلاحم بين المدارس الفكرية المختلفة، التي تتولد خلال مراحل الفساد والانحطاط الفكري التي تسبب الفُرقة والانقسام في الأديان. إذ أن هذا الفساد يكون قد استشرى وضرب بأطنابه، حيث يبدو أنه قد صار من المستحيل إعادة الدين إلى ما كان عليه.

لذا نجد أن أديانا تبدأ بالإيمان اليقيني بوحدانية الله، ثم تتحول تدريجيا إلى طوائف وثنية متعددة. وأحيانا يقوم الإنسان ببعض المحاولات لتوحيد المفاهيم الدينية لدى أتباع الأديان، وإعادة توطيد وحدانية الله. ولكن بكل أسف، نجد أن هذه الجهود لا تنال سوى نجاح محدود. وعموما.. لا يمكن إرجاع العقيدة إلى ما كانت عليه من الصفاء، ما لم يكن هناك عون وهدي إلهي.

ولا نستطيع هنا أن نناقش بالتفصيل كل الآراء المتباينة التي قدمها الفلاسفة والحكماء في الماضي، ولكننا نستطيع أن نقدم وصفا مختصرا لمدلول الوحي والعقل، ومدى الارتباط بينهما.. كما قدمه بعض المفكرين العظام في الماضي.

ما هي الحقيقة الأزلية، وما هي المعرفة؟ وما هي العلاقة بين الاثنتين، إذا كانت هناك علاقة أصلا؟ هل الوحي هو الذي يقدم المعرفة.. التي بدورها تقود إلى الحقائق الأزلية، أم هل يمكن أن نحصل على المعرفة ونكتشف الحقائق الأزلية بواسطة العقل وحده؟

هذه الأسئلة، وأمثالها الكثيرة، كانت تثير عقول الفلاسفة ورجال الدين والمفكرين العلمانيين منذ فجر التاريخ. ولكن قبل أن نبدأ دراسة

حذرة وعميقة لهذه الأمور، فإنه قد يكون من المناسب إيضاح طبيعة الحقيقة الأزلية كما فهمها مختلف المفكرين.

إن جميع المؤمنين بالله الذين يؤمنون بوجود حقيقة أزلية، يفهمون هذه الحقيقة على أنها ثابتة لا تتغير بالنسبة للماضي والحاضر والمستقبل. وهم في الواقع يقصدون الله تعالى وصفاته القدسية بما يذكرونه على أنه الحقيقة الأزلية. ولكن.. حينما يبحث المفكرون العلمانيون نفس الموضوع، فإنهم غالبا لا يبحثونه فيما يختص بالله تعالى. إذ يدور بحثهم ونقاشهم عامة حول قيَم معينة.. مثل الحق، الأمانة، الكرامة، الإيمان، الولاء، وهلم جرًّا. والسؤال الهام الذي حَير عقول الفلاسفة، هو ما إذا كان يوجد بالفعل حقيقة لا تتغير.. حتى في مواجهة الظروف المتغيرة. وكثيرا ما كانت الموضوعية لحقيقة من الحقائق محل جدل ونقاش لتقرير ما إذا كانت تستحق أن تُعتبر بالفعل حقيقة، حتى إن الإنسان كثيرا ما يعجب ما إذا كانت للحقيقة معان متغايرة في الظروف المتباينة.

وجانب آخر لنفس السؤال يتعلق بفكرة الحقيقة التي تختص بالحقائق المتوارية خلف ستار ما هو واضح. فمثلا.. إذا اعتبرنا أن ضوء الشمس هو حقيقة قائمة بذاتها فقد يجانبنا الصواب. فأهم من الضوء نفسه هو الحقيقة السببية للإشعاع التي تعمل من خلف جميع مظاهر الإشعاع، وليس الضوء سوى أحد هذه المظاهر. فالحقيقة العامة الخفية هي خاصية الإشعاع التي قد تتردد أو لا تتردد في موجات طيف، يمكن أن يراه الإنسان في صورة ضوء. ومن هذه الزاوية، فلا يوجد هناك شيء يبدو أنه أزلي عن سطوع الشمس. ولكن، كما ذُكر عاليه، إذا كان من الممكن فهم سبب إشعاع الشمس فهما تاما، فحينئذ.. حيثما كان يعمل هذا السبب الذي يتسبب في الإشعاع، فإنه سيؤدي إلى نفس النتائج. ومن هذا المنطلق.. يمكن اعتبار أنه الحقيقة "الأزلية" التي تتحكم في قوانين الإشعاع وخاصية الإشراق. وبهذا المثال يصير من الواضح تماما أن لفظ

"أزلي" لا يدل دائما على حالة من الدوام المستمر الذي لا ينقطع. فهنا ينطبق اللفظ فقط على ظاهرة سببية، طالما وُجدت فإنها تعطي نفس النتيجة دائما.

بهذا الفهم البسيط للحقيقة الأزلية، فيما يتعلق بالحقائق العرضية، يمكن بحق اعتبار ظاهرة الجاذبية حقيقة أزلية. غير أنه لا بد أن يكون من الواضح في الأذهان أن أدنى تغير في تأثير قوى الجذب، لا يؤثر بحال من الأحوال في الأساس اللامتغير لحقيقة الجاذبية.

ويتضح من المناقشة السابقة.. أنه رغم أن جميع الحقائق الأزلية تؤدي إلى معرفة معينة، فإن جميع المعارف لا يمكن اعتبارها أزلية. فالمعرفة يمكن تعريفها بأنها فكرة عن شيء ما، محفوظة في العقل بأمان على أنها نتفة معلومة، يمكن الاعتماد على صحتها، والرجوع إليها. وحينما تجتمع كل هذه النتف من المعلومات بعضها مع بعض تُكَوّن المخزن الذي تُخزن فيه معارف الإنسان. ولكن.. كيف يمكن لنا أن نكتسب معرفة معينة، وكيف يمكن لنا أن نقرر صدق أو كذب ما إذا كانت معرفة ما.. على وجه التحديد.. صادقة أم كاذبة؟

ومرة أخرى نتساءل.. بأي الوسائل يمكن لنا أن نُصنف المعرفة على أنها حقيقة عرضية، أو حقيقة جوهرية، أو حقيقة أزلية، أو حقيقة مشروطة.. إلى آخر ذلك؟ إنها قدرة التفكير للإنسان وحدها وعقلانيته التي تتأمل هذه الحقائق حينما تُغذَّى للمخ، ثم تُقَلّبها.. وتُقَلّبها مرة أخرى.. وتجعل منها مجموعات مؤتلفة متعددة. هذه العملية الذهنية التي تُفرّق بين الصحيح والخاطئ، بين الواضح والغامض، وبين المحدود وغير المحدود، هي ما نسميه بالميكانيكية العقلانية.

ولكن هنا ينشأ سؤال عن مدى صحة طريقة التحليل هذه لعناصر المعرفة. إذ حينما نصل إلى هذه المرحلة من إدراكنا للعقل، فإن أسئلة محيرة أخرى تتوارد على أفكارنا. فنحن نعرف، مثلا، أنه ليس للعقل الإنساني

ثبات فيما يتعلق بما يكتشفه ذلك العقل. ونحن نعلم على وجه اليقين أن ما يُعتبر معقولا في عصر من العصور، قد لا يكون بالضرورة معقولا في عصر غيره. ونعلم، بغير شك، أن القدرة العقلانية كانت تنمو وتنضج باطراد منذ أن خرج الإنسان من عالم المملكة الحيوانية إلى عالم البشر. ومنذ ذلك الوقت تباعا، فإن المحصلة الجامعة للتجارب الإنسانية، المتراكمة في شكل معارف وحقائق في العقل الإنساني، استمرت في تحسين قدراته العقلية، ونوعية تقديراته الفكرية.

وكما أن التدريبات الرياضية تُحَسّن قوة العضلات، كذلك فإن القدرات الفكرية والعقلانية والذاكرة، تنمو وتكتسب قوة عن طريق التدريب الفكري. ولعل هذا التدريب أيضا هو الذي ساهم في النمو المتزايد لحجم مخ الحيوانات.

هذا الإدراك للتقدم المطرد لقدراتنا الفكرية.. رغم كونه مستحبا من ناحية، فإنه ليس بمستحب من ناحية أخرى، إذ إنه يجعل استنتاجاتنا العقلانية الفكرية محل شك وتساؤل خلال مراحل تطورنا المختلفة.

أليس من المحتمل أن تكون نفس تلك الحقائق، التي غُذِّي بها المخُ البشري خلال المراحل المختلفة من تطوره، قد أسفرت عن استنتاجات مختلفة؟ وإذا كانت الحقائق الموضوعية تبدو متباينة، حين يُنظر إليها من زوايا مختلفة، وإذا كانت الاستنتاجات التي استخلصها العقل الإنساني بغير انحياز، تختلف هي الأخرى في الأزمنة المختلفة، فحينئذ.. ألا يسوغ الحكم عليها بأنها ليست سوى مجرد حقائق مُبررة؟ وعليه.. فبالمنطق الاستدلالي والعقل وحده، في أي زمن من الأزمان، لا يمكن لنا أن نحكم على أي معرفة اكتسبناها بأنها الحقيقة المطلقة.

إن الأمور التي سوف نقوم ببحثها تتعلق بالآليات التي تقود إلى المعرفة، والأسلوب الذي بواسطته يمكن التأكيد على أن معرفة معينة تُعتبر بالفعل حقيقة ثابتة. وإذا أمكن وضع جميع الزوايا، التي يمكن أن ينظر منها

الإنسان على منصة متحركة، مع التغيير المستمر لزاوية النظر، فكيف يمكن لأية معرفة أو معلومة يمكن لنا تحصيلها.. أن نعتبرها حقيقة، وبأي درجة من درجات اليقين؟ إن هناك منظورًا واحدًا، وذلك هو الذي لله الخالق، وذلك هو المنظور الأزلي والثابت. وعلى هذا.. إذا أمكن إثبات وجود إله عليم بكل شيء، قدير على كل شيء، حاضر في كل مكان، وكان أزليا في وجوده، قدوسا لا يخطئ، متعاليا يسمو على كل شيء، ذا قوة مطلقة بغير حدود، وله جميع الصفات المطلقة، فحينئذ.. وفقط حينئذ.. يمكن أن يكون هناك احتمال الحصول منه على معارف الحقائق الأزلية. ولكن هذا الافتراض قائم على أساس أن هذا الكائن الأعظم ليس فقط موجودًا، بل يتصل ويتحدث أيضا مع البشر. وهذا الاتصال بين الله والبشر هو ما يُسمى وحيا في المصطلح الديني.

إن بحث أمور على مثل هذا الجانب العظيم من الأهمية، على أساس عقلاني وعلماني خالص لا يُعتبر مهمة سهلة. وتزداد المهمة صعوبة وتحديا، إذا أضفنا إليها موضوع الوحي، وما إذا كان قد لعب دورا هاما في هداية الإنسان. ومع ذلك.. فإن هذه هي المهمة التي أخذنا على عاتقنا تبيانها، مع إدراكنا الكامل لجميع التعقيدات التي يتضمنها هذا التبيان.

إننا نسأل القارئ، بكل احترام، أن يبذل جهدا لكي يظل منتبها، ومتى عوّد القارئ نفسه على خبايا اللغز الفلسفي والعقلاني، فإنه سوف يجني شعورا بالسرور العظيم، حين يرى كل قطعة من هذا اللغز تقع في مكانها الصحيح.

وبالنسبة للدين، فقد أدى هذا المنظور إلى توَلد مدرسة فكرية بين علماء الاجتماع والمفكرين في العصر الحديث، الذين يرون أن نشوء الدين وارتقاءه إنما كان انعكاسا لنمو القوة العقلانية في الإنسان. وهذا يعني أن الذكاء البدائي نسبيا للإنسان في الماضي السحيق، هو الذي خلق صورا وأفكارا متعددة عن آلهة، أدت مع مرور الزمن إلى مولد فكرة وجود إله

واحد، يسمى "الله" في العربية، أو GOD في الإنجليزية، أو PARMATMA في الهندية، الخ. وإذا أمكن قبول هذه النظرية، فإنها تؤدي بنا إلى استنتاج أن الدين في كل مرحلة من مراحل تاريخه، كان ينمو حسب القدرات العقلانية المتغايرة للإنسان.

وهذا المنظور يعارض تماما الرأي الذي تقول به العديد من الأديان في العالم، والتي تؤمن جميعها بأن الدين قد انبثق عن الله تعالى. وطبقا لهذا الرأي.. فإن الله الواحد الأزلي الحكيم هو الذي علم الإنسان الدين مباشرة. ويرى هذا الرأي أن الشرك، أو التعددية الإلهية التي سادت بعض المراحل من التاريخ الإنساني، لم تكن سوى عملية انتكاسية، أي أنها عملية كانت تحدث دوما عقب عملية التوحيد، أو الوحدانية الإلهية، بعد أن أرسى قواعدها رسل الله ووطدوا أركانها. وسوف نذكر فيما بعد مناقشة لهذه الأمور والقضايا.

إن معظم الأديان العظمى تقريبًا تدعو للإيمان بإله غير منظور.. إله يستطيع أن يتصل بالإنسان، بل ويتصل به فعلا. وهي تقول إن الله يختار مندوبين من بين البشر، وأن تلك الاتصالات التي يتلقاها هؤلاء من الله، هي الطريقة الوحيدة التي يمكن الاعتماد عليها في الوصول إلى المعرفة الصحيحة. وهي تقول بأنه من المستحيل التأكيد على صدق أية حقيقة، بيقين تام، إذا كانت قائمة فقط على التجارب الإنسانية والاستنتاجات العقلانية.

إن كل ما ذكرناه عاليه باختصار قد تناولناه بتفصيل أكثر في الفصول التالية.